تباشير فكر النهضة في العراق

الحركة الشعرية .. الزهاوي مثالا

سعد محمد رحيم

فضلاً عن عوامل عديدة أخرى، ساهم عاملان متداخلان، لا بد من الإشارة إليهما، في إشكالية تكوين النسيج الاجتماعي والثقافي في العراق، بالتزامن مع ظهور شرارات النهضتين التركية والعربية في تركيا ومصر، يتلخصان بـ:

١. كانت النهضة التركية، منذ بواكير القرن الثامن عشر. والنهضة المصرية، في حدود النصف الثاني من القرن التاسع عشر، منفعلة بما جرى في الغرب، أما النهضة في العراق فانفعلت إلى حد بعيد بما جرى في تركيا ومصر وبلاد الشام.. كانت هناك أربعة قرون، في الأقل، من نهضة أوروبية أفرزت إصلاحاً دينياً وعصر تنوير وثورة صناعية ومبادئ جديدة قائمة على تبجيل العقل والحرية وإعلاء شأن الذات الإنسانية وقيمتها. وكان حتماً تاريخياً أن تؤثر منجزات النهضة الأوربية وعقابيلها في مركز وأطراف الإمبراطورية العثمانية، ولتكون تحدياً يحفز الاستجابة.

٢. كانت تركيا وكذلك مصر متوحدتين سياسياً وجغرافياً قبل وإبان العهد العثماني، فيما كان العراق عبارة عن ثلاث ولايات تابعة للباب العالي. ثم كانت اتفاقية سايكس- بيكو في أعقاب الحرب العالمية الثانية قد أشرت خارطة للعراق دخلت في إهابها مكونات عشائرية وطائفية وعرقية متباينة لم تكن قد كونت (أمة) بالمعنى الحديث للكلمة. وكانت مهمة النخب الفكرية والسياسية هي إرساء قواعد تكوين هذه الأمة وتحققها تاريخياً في إطار دولة هي الدولة العراقية الحديثة. هذه الحقيقة ستتمخض فيما بعد عن صراعات وإشكاليات وتناقضات، بعضها حادة ودامية، في مسار تاريخنا المعاصر.

كان المجتمع العراقي يعاني الاستبداد الطويل والفقر والجهل والأمية، إلى جانب الصراعات ذات الطابع القبائلي وغياب القانون وسيادة منطق المغالبة والثأر وأحياناً السلب والنهب. وكان حرياً برياح التغيير التي تجتاح المنطقة والعالم أن تُنضج شروطاً ذاتية وموضوعية تمهد لتغييرات ضرورية في الداخل العراقي.

بعد تجاهل طويل تنبهت السلطة العثمانية إلى ضرورة إجراء إصلاحات في الولايات غير التركية أيضاً ولاسيما تلك المتاخمة لمركز الإمبراطورية، وكانت ولايات العراق مما التفتت إليها تلك السلطة، وإن بعد فوات الأوان.. كانت ثمة إصلاحات محدودة، قبل ذلك، في عهدي الواليين داود باشا ومدحت باشا. ولا شك أن إيجاد مؤسسات للتعليم كان الخطوة الأهم في هذا المسار. ومن خريجي المدارس الابتدائية والرشدية في العراق ولدت النخبة العسكرية العراقية التي ستساهم في ثورة الشريف حسين في الحجاز بدعم بريطاني ضد الإمبراطورية المتداعية الأركان. وهؤلاء هم الذين سيكونون الإداريين الأوائل للدولة العراقية الحديثة (١٩٢١) ومنهم (نوري السعيد وياسين الهاشمي وعبد المحسن السعدون وجميل المدفعي وآخرون). وأغلبهم كانوا ممن تثقفوا في مناخ انتعاش الفكر القومي والعلماني في تركيا وكانت لغة ثقافتهم التركية أيضاً. وبعضهم كان من أصول عرقية تركية، وبذا كان تأثرهم بمضامين ذلك الفكر حاسماً. فبدا وكأن الدولة العراقية الفتية تستعير البعدين القومي والعلماني ليكونا أساسين في بنائها. كما يومئ حسن العلوي في كتابه (دولة الاستعارة القومية).

تحيلنا النظرة السريعة إلى واقع حال الوضع الفكري في العراق إلى افتراض مؤداه؛ أنه لم تكن لدينا، فكرياً، لحظات موازية للحظات الطهطاوي ومحمد عبده وعبد الله النديم وعلي عبد الرازق وطه حسين، إلا أن هذه اللحظات وجدت لها أصداء بهذه الدرجة أو تلك في فكر النخب العراقية الآخذة بالنضوج. غير أن أية دراسة متعمقة للنتاجات الفكرية والأدبية التي عرفت في العراق بهذا القدر أو ذاك تنبئنا بأن النتاج الفكري العراقي في تلك الآونة على الرغم من أهميته النسبية، لم تعرف الانتشار عربياً، ربما بسبب ضعف الإعلام، وعدم وجود مؤسسات حاضنة ومروجة لتلك النتاجات. فظل نطاق تداول أفكار النهضة ضمن النخبة الضيقة. وإذا كان مفكرو النهضة العظام يطرحون أفكارهم من خلال مقالات وكتب فكرية فإن أبرز النهضويين العراقيين كانوا من الشعراء (جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي ومحمد سعيد الحبوبي ومحمد رضا الشبيبي وعبد المحسن الكاظمي ومحمد مهدي الجواهري) ولعل السبب يعود إلى أن البيئة الثقافية العراقية كانت ذات طابع شعري. وإدراك هؤلاء أن تأثير الفكرة المصاغة في قالب شعري يكون أكبر في مجتمع جل أفراده أميون حيث لم تكن الفنون النثرية الحديثة قد سادت على نطاق واسع بعد. وكان لشعراء العراق مراسلاتهم ولقاءاتهم مع أدباء ومفكري النهضة في البلدان العربية الأخرى.. وعموماً، وبحسب الدكتور محسن جاسم الموسوي "لم تكن أشعار الرصافي والشبيبي والزهاوي والكاظمي ولقاءاتهم بإبراهيم اليازجي وشبلي شميل ويعقوب صروف وفارس نمر وجرجي زيدان أمراً اعتيادياً آنذاك؛ إذ كانت أفكارهم في كثير من الأحيان واحدة من سمات اليقظة الفكرية العربية".

تعبر المماحكات الشعرية بين معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي إلى جانب حمل الشاعرين في طيات قصائدهما افكاراً جديدة مستشرفة عن بدء عملية صعود الطبقة الوسطى العراقية، وإن كان بشكل بطيء. والتململ الجنيني لفكر نهضة لم تكن قد تحددت صورتها وآفاقها بعد. وكان تأثر الشاعرين كبيراً بدعوات الإصلاح العلماني في تركيا. أكثر بكثير من تأثرهما، وغيرهما، بحركة التنوير والنهضة التي نشطت في بلاد عربية عديدة ولاسيما مصر.

ويلاحظ حسن العلوي في كتابه (دولة الاستعارة القومية) أن الدعوة العلمانية العراقية بدأت في العقد الأخير من القرن التاسع عشر "وكان الشاعر جميل صدقي الزهاوي أحد أبرز دعاتها إلى جانب الشاعر معروف الرصافي إلى أن تناولها الشاعر محمد مهدي الجواهري علمانياً حتى العظم" ص,٦٩

حمل الشعراء فكر النهضة والحداثة، ومن ثم الأفكار الثورية الراديكالية منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وكان تأثيرهم في الوسط الجماهيري طاغياً، حيث كان يمكن لقصيدة أن تؤجج الحماس وتدفع الناس إلى الشوارع احتجاجاً على سياسات الحكومة. وقد سقطت حكومات عديدة، في العهد الملكي نتيجة الاحتجاج الجماهيري الغاضب والعنيف أحياناً. وفي الغالب كانت القصيدة من هذا الطراز مشحونة بقوة عاطفية تمس الوجدان العام وتفتح الأذهان على حقيقة الأوضاع وما يحدث في الساحة السياسية. وتدعو لتبني الأفكار والمفاهيم الجديدة، ومحاربة القيم والتقاليد البالية. وقد أدى الشعراء دوراً في بث أفكار الحداثة والنهضة أكثر بكثير مما فعل الأدباء والباحثون والمفكرون. ولعل من الأسباب الكامنة وراء ذلك هي التحولات السريعة في الحياة العراقية في حينها بحيث لم تترك مجالاً كافياً للفكر المتأني، العقلاني. فضلاً عن انتشار الأمية، والسمة البدوية للمجتمع، إذا ما استعرنا فكرة علي الوردي، حيث تميل غالبية المجتمع التي تعرضت طويلاً لهجمات القيم البدوية، أو التي لم تخرج بعد من عباءة البداوة، إلى التعبئة الانفعالية التي تتيحها القصيدة في شكلها الكلاسيكي. وحتى في العقود المتأخرة مارس الشعر الحر وقصيدة النثر دوراً في مقاومة السلطات بأشكالها السياسية والاجتماعية لقدرة نوعه الأدبي على المراوغة وإخفاء المعاني. إذ لا بد من تجنب إغفال دور الحكومات المتعاقبة التي كان طابعها الاستبداد والقمع في معظم الأحيان في محاربة النظر العلمي والعقلي إلى المجتمع والنظام السياسي والاكتفاء بالشعارات والأساليب الدعائية التي تحجب الحقائق وتخدع الرأي العام.

إلى جانب ذلك لم تكن قد توفرت وسائل إعلامية وثقافية كافية بمستطاعها نشر الأفكار المبنية على التحليل العلمي الدقيق، ناهيك عن غياب المؤسسات الحاضنة، يومها، كالجامعات ومراكز الأبحاث يمكنها إشاعة تقاليد البحث والنشر. وهذا لا يعني أنه لم تكن هناك محاولات جادة قام بها قصاصون وروائيون ومقاليون وباحثون مفكرون للتبشير بمفاهيم الحداثة والنهضة كتحرير المرأة والمجتمع عموماً وإقامة مؤسسات الدولة على أسس عقلانية وديمقراطية وإشاعة التعليم ونبذ الخرافة والعادات البالية، والتأكيد على تحقيق الذات الإنسانية إلا أن العراق لم يعرف مفكرين تركوا تراثاً فكرياً يضاهي ما تركه المصريون والشاميون من أمثال الطهطاوي ومحمد عبده والكواكبي وغيرهم حيث جرى التماس مع فكر التنوير الأوروبي بوقت أبكر وازدهرت الصحافة ووجدت المطابع وأرسلت البعثات إلى المراكز المتروبولية كباريس ولندن. كما أن انتشار الأفكار الراديكالية في العراق المشحونة بالحماس الثوري أنعش القصيدة الحماسية والانفعالية.

وفي الأحوال كلها لا يجدر التقليل من أهمية ما أداه الشعراء في حركة التنوير الفكري في العراق. وهنا نأخذ نماذج ثلاثة، من غير أن يعني هذا أن الدور الأكبر اقتصر على هؤلاء، فهناك أسماء كبيرة أخرى أدت دورها التنويري والوطني كالشاعر الشهيد محمد سعيد الحبوبي أحد قادة الثورة العراقية في ١٩٢٠ والشاعر عبد المحسن الكاظمي والشاعر محمد رضا الشبيبي. **جميل صدقي الزهاوي:**

ولد الزهاوي (١٨٦٣. ١٩٣٦) في بغداد من أبوين كرديين. وكان يحلو لبعضهم نعته بالشاعر الفيلسوف. اشتهر بدعوته إلى الحرية والعدالة. تأثر بالأفكار العلمانية في تركيا، وآمن بالعلم داعياً إلى الأخذ بأسبابه، والتحرر من الخرافة والجهل لمصلحة العقل. والتحرر من القيود الاجتماعية والدينية. مؤكداً تحرير المرأة. ولهذا حاربه التقليديون والرجعيون واصفين إياه بالمارق ومحرضين عليه الدهماء..

لم يكن من السهل في مجتمع محافظ أن يقول، في سبيل المثال، مثل هذين البيتين:

مزقي يا ابنة العراق الحجابا واسفري فالحياة تبغي انقلابا

مزقيه واحرقيه بلا ريث فقد كان حارساً كذابا

كان يعي أن الحياة الجديدة لا يمكن أن تبنى من غير أن يكون هناك دور فاعل للمرأة في الحياة العامة، فبقاء نصف المجتمع مستوراً، ومحجوراً عليه يصيب النصف الآخر بالشلل أيضاً.. يقول:

كيف يسمو إلى الحضارة شعب منه نصف عن نصفه مستور

ويقول:

وكل جنس له نقص بمفرده أما الحياة فبالجنسين تكتمل

أما العراق ففيه الأمر مختلف فقد ألمّ بنصف الأمة الشلل

ولذا رأى أن تحرر الوطن لن يتم من غير تحرر المرأة، فكتب في هذا الشأن قصائد ومقالات عديدة، حاول عبرها بث روح وفكر النهضة في العراق، بجرأة قل نظيرها، في ذلك الوقت، وفي منعطف حاسم من تاريخه. وساءه حال الجهل المتفشي بين الناس.. يقول:

إن في رونق النهار لناساً لم يُزل عن عيونها الديجور

وكان رائده العقل، أداة تفكير البشر لمعرفة الطبيعة والكون والمجتمع والذات. وتأمين متطلبات التمدن:

غير أني أرتاب في كل ما قد عجز العقل عنه والتفكير

وقد أدرك مبكراً كيف أن الدين استثمر لزرع التعصب والفرقة بين أبناء المجتمع الواحد استناداً إلى أخطاء في تفسير كتاب الله:

لم يكن في الكتاب من خطأ كلا ولكن أخطأ التفسير

ووجد في التعصب واحداً من عوامل تأخر البلد:

هو التعصب قد والله أخركم عن الشعوب التي تسعى فتقترب

وعرف أن العلم هو علة تقدم وسعادة الغرب، في حين أن الشرق ما زال يرسف في أغلال الجهل:

الشرق ما زال يحبو وهو مغتمض والغرب يركض وثباً وهو يقظان

والغرب أبناؤه بالعلم قد سعدوا والشرق أهلوه في جهل كما كانوا

أما ما يرتقي بقيمة الإنسان فهو العقل والعلم والعمل ولذا:

الغرب عزّ بنوه أينما نزلوا والشرق إلاّ قليلاً أهله هانوا

أما كيف يمكن الخروج من هوّة التأخر والانحطاط فليس من سبيل بحسب وجهة نظره إلا التوسل بالعلم والمعرفة وتنظيم المجتمع والدولة:

سترقى بلاد الشرق بعد انحطاطها لو أن بنيها استيقظوا وتعلموا

يزول تماماً ما بها من تأخر لو أن حكومات البلاد تنظم

صحيح أن الزهاوي لم يحدث إزاحة في الشكل الشعري وحافظ على البناء التقليدي للقصيدة، وربما لم تكن شروط مثل تلك الإزاحة قد نضجت في حينها لكن الأفكار التي جاهر بها تضعه في المقدمة بين رسل الحداثة العراقيين والعرب. فهو أكثر حداثة حتى من بعض المتبجحين بالحداثة في يومنا هذا. وكان نده الرصافي قد قال فيه:

أعيذك يا جميل الشعر من أن يسوءك نقد أرباب المساوي

فنفخ منك يجعلهم هباءً ويسقطهم إلى سفل المهاوي

وقد قال فيه طه حسين "لم يكن الزهاوي شاعر العربية فحسب ولا شاعر العراق بل شاعر مصر وغيرها من الأقطار.. لقد كان شاعر العقل، وكان معري العصر، ولكنه المعري الذي اتصل بأوروبا وتسلح بالعلم".

ورثاه الجواهري قائلاً:

على رغم أنف الدهر ذكراك خالد ترن بسمع الدهر منك القصائد

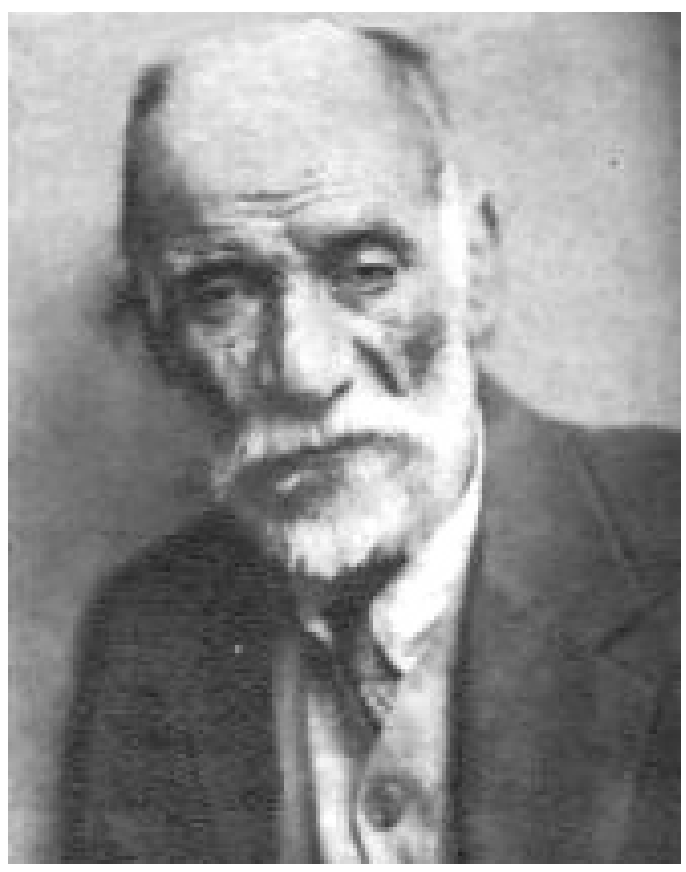

اوجاع ومسرات (الخال) خليل شوقي

علي حسين

يسير خليل شوقي في شوارع لم يالفها غريبا ومغتربا وهو يفتش عن مجتمع دافئ ومكان اليف وزمن سوي يعترف بالانسان والضحك وحرية اللسان وشقاوة الاصحاب وترف الامسيات.. يسير الخال في شوارع الغربة ولايعرف هو ولا نحن محبوه اين سينتهي المطاف بفنان رفض الاستسلام وغرد خارج السرب.. ونلمح ملامح وجهه المحبب الى النفس فنقرأ فيه رحلة التعب والمواجهة ممتزجة بافراح ومسرات الماضي.. تعب في العينين وابتسامة يختلط فيها الحزن والشرود وبساطة ترتفع على التصنع فنغمض اعيننا ونحن نتخيل صوتة الرنان ممتزجا بعبارات بغدادية عذبة:

(الدنيا تغيرت تركض ركض لازم واحد يلحك بها).

لكان الفنان الكبير قد اكتفى باحلامه وتخفف من عقد المثقفين.. يقول الشيء المفيد ولايكترث بزوبعة الاحكام..ينظر الخال خليل شوقي الى العالم الذي يحمل برودة المنطق وحرارة القلب.. بين الحزن على حلم تهاوى والاحتجاج الصارخ على مايكسر الحلم..فكان دائما يصر على ان يكون صحيحا وان يقول صحيحا وان يمثل صحيحا وان يكون صورة لفنان الشعب ومرآة العقل والارادة يدافع عن المبادئ النقية ويظل نقيا يقاتل في معركة الحرية دون ان يكترث للربح والخسارة..يمزج بين الحلم والحياة.. تكون الحياة مصدر الهامه ويكون الحلم صوت المستقبل الواعد.

يحمل خليل شوقي سنواته التي تعدت الثمانين بعيدا في المنافي ترتجف اليد وتظل الذاكرة شابة تجول في شوارع بغداد تصطاد حكايات العراقيين في الاربعينيات واحلامهم في الخمسينيات وقلقهم في الستينيات وضياعهم في السبعينيات وبؤسهم في الثمانينيات وتشردهم في التسعينيات ونرى بغداد كلما طلع علينا الخال خليل شوقي بقامته الفارعة من على شاشة التلفزيون ونشم عبقها حين يهمس مصطفى الدلال (سليمة خاتون تره اني مقصر) ونحس نبضها في ملامح زاير ونرى تضاريسها في عيون عبد القادر بيك..فنشعر اننا ازاء شخصية حملت في جوانحها كل افراح واوجاع واحزان ومسرات العراقيين.

ينتمي خليل شوقي الى طائفة من الممثلين الاثيرين على قلب المشاهد.. ممثل يتمتع بعبقرية لها طعم خاص يترك اثراً في النفس..حين تشاهده تشعر وكانك قرأت كتابا ممتعا..فعند هذا الفنان قدرة عجيبة على تشرب الثقافة والحياة الكامنة خلف هذه الثقافة..فعندما يقف الخال على خشبة المسرح يكون عقله وقلبه واعصابه جزءاً من الاداء فيعطي كل ماعنده في البروفة والعرض المسرحي فتراه عندما يبكي على المسرح هو الذي يبكي وعندما يضحك هو الذي يضحك وعندما يبدع الشخصية لم يكن يتوارى خلفها وانما يقف بالند منها.. كتب ستانسلافسكي مرة ان على الممثل ان يكون مخرجا لدوره وهو لم يقصد بالطبع ان يضع الممثل مكان المخرج بل اراد التحدث عن اهمية المبادرة عند الممثل وعن رؤيته الواسعة ودرجة مهارته وهكذا كان خليل شوقي في معظم ادوارة، ذكياً يعرف مايفعل انه لايؤدي الدور وحسب بل يقوم بتفسيره والتعبير عن وجهة نظره تجاه الاشياء والشخصية التي يؤديها ويمكنك مشاهدته منفردا لوحده فتستمتع وكانك تشاهد مسرحية بطلها ممثل واحد ولكن بنفس الوقت تراه يخضع بحكمة وهدوء للعمل المسرحي الكلي..في المسرح والتلفزيون يتصرف خليل شوقي كانه شخصية من شخصيات الف ليلة وليلة الخارجة من حضن الاحلام بسدارة بغدادية اويشماغ جنوبي وابتسامة محببة الى النفس فيخطف قلوب وابصار المتفرجين وهو يؤكد:

(لست متعلقاً بالشخصيات البغدادية فقط وانما انا متعلق بمجمل الشخصيات التي مثلتها لذلك اطلق عليها تسمية الشخصيات المنحوتة بطريقة زخرفية معبرة جدا) وهو هنا يعي جيدا ماقاله ستانسلافسكي من ان معايشة الدور تعني ان على الممثل في كل مرة وعند كل اعادة ان يحس ويفكر بصدق..وهو يدرك ان المسرح فن للعب مثلما هو فن للمعايشة ولاجل اللعب يجب ان تكون موهوبا ولاجل المعايشة على المسرح يجب ان تمتلك الموهبة والثقافة وان تدرس وتفهم الكثير عن هذه المهنة وقوانينها.

من بين الشخصيات التي تسحر خليل شوقي وسحر بها المتفرجون شخصية البخيل وقد أداها في المسرح من خلال عملين مهمين الاول بغداد الازل بين الجد والهزل حيث منح شخصية البخيل حيويتها التاريخية بشكل عكس صورة البخيل مختزلا من خلال ادائه الانيق اخلاقيات البخلاء في مجمل التاريخ العربي معتمدا اشارات واضحة في الصوت وخطوات قصيرة في الحركة تكشف عن دواخل الشخصية، والشخصية الثانية شخصية دبش في مسرحية القربان وهنا منح شخصية البخيل الحيوية والقبح في آن واحد من خلال حركات وايماءات واشارات ذات مدلول اجتماعي تعبر عن شخصية البخيل في التراث البغدادي المعاصر فكان دبش في نومه اومرضه اوتعامله مع الناس صورة للكائن القبيح اما في التلفزيون فمازالت شخصية عبد القادر بيك البخيل القافز بمكر نحو طبقة اجتماعية جديدة حاضرة في الاذهان من خلال التقنية الفريدة في الالقاء التي اتبعها خليل شوقي وحركة الراس التي اختصر من خلالها سلوك الشخصية التي انبثقت فجاة لتحاول السيطرة على كل شيء.

تدور احداث مسرحية النخلة والجيران في احياء بغداد الفقيرة وزمنها هو زمن الحرب العالمية الثانية وزمن الاحتلال الانكليزي للعراق في هذا الزمن الذي يعصف بالعالم ويبني ملامح عالم جديد تقف شخصيات النخلة والجيران على مسرح قاعة الخلد ببغداد عام ١٩٦٩ مكسورة تدور في حركة عاجزة.. تتلمس الاشياء ولاتدرك حركتها.. هناك نشاهد سليمة (الراحلة زينب) تنغلق على احزانها الدائمة، تعيش من تراكم الالم ولسعة النار والنهوض مبكرا تلقي بها تجربتها في الحياة بين انياب مصطفى (خليل شوقي) الدلال الحالم بنجاح وحيد في حياة مسارها الفشل، يفتش عن النجاح في بيع مهربات انكليزية فياخذ نقود سليمة ويعطيها للاوهام مقنعا نفسه والاخرين بان الانكليز باقون في بغداد الى اخر العمر..مخلوق جدير بالرثاء محكوم ببيئة تتحرك على مسرح الفقر الكلي وهو يكشف عن فقر في الجسد والفكر والروح حين يقول (اوف سليمة لتصيرين اقسى من الانكليز) وقد ذكر لي الخال خليل شوقي في حوار معه نشر في اوائل الثمانينات انه حين وقع عليه الاختيار لتمثيل هذه الشخصية كان قد قرأ رواية غائب طعمة فرمان ولكنه اثناء التدريبات راجع شخصية مصطفى الدلال من جديد محاولا استيعاب شرح الروائي لتفاصيل الشخصية محاولا ايجاد توازن بين الشخصية في الرواية والايحاء التمثيلي على المسرح: (لقد خرجت بنتيجة واحدة لو اردت ان اكون مصطفى الذي رسمه غائب روائيا فلن استطيع ان اكون ممثلا على المسرح... لماذا... لانني ساضع القضية بشكل مطاطي.. تفقد صفة وحقيقة الحياة على المسرح.. بمعنى انها ستكون مقولبة تتحرك وتحس وتقوم وتجلس بحساب ونحن نريدها ان تقوم وتجلس وتنظر بمعاناة.. فالممثل يقلق ويضطرب امام اعين المتفرجين).

وقد اعتمد اداء خليل شوقي لشخصية مصطفى على عنصرين مهمين:

الاول / ترك مساحة للارتجال مع الجمهور داخل اطار محدد وهو يمتلك في الوقت نفسه قدرة على السيطرة على الموقف تمكنه من الخروج والدخول في سياق الحدث العام.

الثاني/ الاسترخاء.. حيث هيأ خليل شوقي الممثل المناخ الافضل لتقمص شخصية مصطفى مهيئاً لها فرصة للتحكم في الموقف والسيطرة عليه.

لقد استطاع خليل شوقي ان يقدم شخصية مصطفى بطبيعتها وهي تفيض حيوية على المسرح فكانت المسرحية والدور من اجمل وارقى ماقدمه المسرح العراقي.

في مدينة هلامية مثل كل مدن الغربة..وفي غروب لايشبه غروب بغداد..وفي لحظة تتداعى فيها الامكنة والازمنة يبدأ الخال خليل شوقي - كما يحب ان نسميه — اغنيته الحزينة الشبيهة باغنية التم وهو ينظر بعين الأسى الى عالم شرس كله قسوة واوجاع.. متسائلا اين الوطن..اين المنفى..والاهم اين الذين يتذكرون ان هناك فناناً اسمه خليل شوقي يستحق منا شعبا وحكومة كل الاهتمام والوفاء والحب؟

المؤقت

دنى غالي

إسعاف ١

تذكر بأنه وعد نفسه بالتوقف عن اللعن والسب. حك ذقنه ورفض فكرة الحلاقة والحمام تماما الآن. ارتفع ضغط الدم والسكر مذ ضاعت أوراق معاملة لم الشمل. هو في غم، ليس هناك من وصف أدق من هذا.

كيف سيصحح من سير طلب لم الشمل الذي تقدم به إلى دائرة الهجرة ليأتي بزوجته المنتظرة مع الولد في دمشق.

نظر إلى ساعته. أتم كل ما توجب قبل الحادية عشرة، موعد لقائه بالمشرفة.

كيف يمكن أن تضيع أوراق مرسلة بالبريد الدبلوماسي؟

يكرر سؤاله إلى المشرفة بحرقة، رغم انه وجد في المترجمة اذنا أكثر اصغاءا وعينا أظهرت تعاطفا. فرد لهما مكانا على الأريكة ونفض الغبار قبل أن تجلسا. أخبرهما بأنه لم يعتد على السكن مع أحد ولكن الظروف تجبر الإنسان بالفعل على القبول بكل شيء.

أجل، بإمكانه الإنتقال من السكن المؤقت إلى شقة بشكل دائمي، كما اقترحت عليه البلدية، ولكنه يؤثر البقاء هنا حتى مجيء أم الأولاد. المبنى واسع وحديقته فرهة كبيرة، وفي البقاء توفير بالنسبة للمبلغ المحسوم من المساعدة كإيجار، وهناك في الأقل من يتحدث معه. ثم قرب السكن من موقف الباص، هذا أمر لا يجب الإستهانة به بعد النوبة القلبية التي تعرض لها مؤخرا. رغم ان السكن المؤقت لا يخلو من المنغصات. حاول أن يشرح لهما كيف هو العيش في السكن المؤقت. وها قد مر أكثر من عام على مكوثه منتظرا وحيدا. أقسم بقبر والدته بأنه الوحيد الذي يقوم بتنظيف المطبخ والحمام بعد استعماله لهما، وقد كنس بنفسه صالة الإستقبال صباحا عندما وصله خبر زيارتهما.

طلب من المشرفة التفضل ورؤية المطبخ بعينها. ألح في ذلك. قدران صغيران جاهزان على الطباخ، واحد للرز والآخر للمرقة. وقد مسح ما حوالي القدرين ورتب ما على سطح الدواليب.

أربكه ان تنظر المشرفة لساعتها. أمر واحد فقط كان يود الإستفسار بخصوصه، ليس إلا. احتدّ لتدخل المترجمة. طلبها منه الإختصار بسبب الوقت المتاح لا يعكس احتراما لشخصه وسنه، وهو بحالته النفسية هذه يفقد قدرته على التركيز لأتفه الأسباب، وما دامت هي بنتاً عراقية فالأفضل أن تظهر أدبا وأخلاقا أمام الأجانب فليس من المقبول أن يتخلى الإنسان عن أخلاقياته لمجرد اتقانه لغة. ومهما كان الموضوع الذي ترغب المشرفة في التحدث معه بشأنه فلن تكون له الاولوية، طالما كان هناك ما يضايقه، إذ من واجب المشرفة الإنصات إلى ما يريد قوله، إلى من هي مسؤولة عنه. وهي ليست سوى مترجمة، لا يحق لها غير أن تنقل كل ما يدور من حديث بينه وبين المشرفة، التي تمثل السلطة، لا المترجمة. لا لا، كان الأولى أن تعرف مع من هي تتحدث فهي عراقية ايضا. مدير ملاحظين في دائرة الري لعشرين عاما، والكل يعرف من هو. كل ما ود الإستفسار عنه هو امكانية الحصول على قرض، بمعنى استدانة من المشرفة، ليتسنى لعائلته تدبر امورها. وضعه المادي لا يسمح له بشيء ولم يبق صديق ذو علاقة لم يستدن منه من اجل معاملة لم الشمل والإتصالات والمحامي والمشاوير.

لولا ان البلدية تتكفل بدوائه ومشفاه وممرضته لما بقي على قيد الحياة. إنه يقسم بقبر امه لولا هذا البلد المضياف لما تدبر امره. بينما هؤلاء النزلاء اللاجئون وإن كانوا عراقيين وبمثابة أولاده، لا يسمعونه حتى كلمة صباح الخير. هو لا يريد أن يخبر البلدية عن سهراتهم في الطابق العلوي ومجونهم الكافر وممارستهم الفجور. لو لم تكن المشرفة والمترجمة من النساء لذكر ما حدث ليلة الأمس. يدنو اكثر من المترجمة ليطلب منها، بإشارة تواطؤ في وجهه، أن تنبه المشرفة بشأنهم فالدنماركيون ساذجون وليس الكل هنا سواسية. التفكير وحده في احتمالية وصول زوجته واضطراره ابقاءها هنا مع هؤلاء الشبان يفقده صوابه. لا يدري ما العمل. باتت الفكرة تعذبه، تلح في رأسه، خياله يضرب يمينا ويسارا فينوبه حينها صداع لا يطاق.

تحسس جهاز الإنذار الذي يلبسه مثل الساعة. اخبرهما أن الجهاز رغم ذلك جعله أكثر هدوءا الآن. في النوبة الأخيرة لم يستغرق الأمر طويلا حتى سمع صوت سيارة الإسعاف عند الباب، لولا جهاز الإنذار لكان في عداد الأموات الآن. ولكنه دعاهما إلى نسيان امر صحته الآن، هو يود ترك الحديث عن المرض. يتهمه النزلاء هنا بذلك، وكما تعرف المشرفة فالشكوى التي تقدم بها النزلاء من العراقيين إلى البلدية ضده بدعوى اخفائه أدوات التنظيف وقفله دواليب المطبخ وصراخه وبكائه أثناء نومه ليلا ماهي إلا مزحة ثقيلة جدا ودليل على عدم احساسهم واحترامهم لكبار السن.

ثم ان اقتراحه الذي قدمه للبلدية كان صائبا حول ضرورة توفيرهم شقة لعائلته مقدما، تكون جاهزة حال وصول زوجته. لا يفهم سبب رفض البلدية لذلك. يعرف الجميع أن الحصول على شقة يتطلب فترة انتظار طويلة؛ هب انها وصلت في الغد!

توجه كليا إلى المترجمة وخصها بالحديث " البلدية لا تدرك طريقة حياتنا وأهمية تقاليدنا وأخلاقنا فنحن من العوائل المحترمة التي لا يليق بها أن ترضى مشاركة أحد ما الحمام والمطبخ وصالة الجلوس، وهي عراقية وتعرف ذلك حق المعرفة وينبغي لها ان تتدخل في توضيح هذه المسألة، هي ايضا موظفة شأن الاخرين في البلدية ويهمس من ثم " هم الدنماركيون لا فرق عندهم". رجاها هامسا ألا تترجم ما ختم به حديثه إلى المشرفة.

ولكنه لن يقبل رفعهم للقاطع الخشبي الذي ثبته في الصالة ليقسم صالة إستقبال النزلاء إلى قسمين. لن يسمح لمخلوق بأن يتلصص على زوجته في حركتها بين المطبخ والحمام وغرفتهم.

توقف عن الكلام فجأة واستدار ناحية المشرفة. تذكر ان زيارتها كانت لسبب مهم كما ذُكر له في الصباح.

أجل، قالت المشرفة، كان ذلك بشأن نتائج الفحص لدائرة الهجرة. فحص " DNA والأسنان" للولد، أظهر اشتباكا في المعلومات التي قدمها الأب إلى دائرة الهجرة. وهو مطلوب للمثول أمام المحكمة لتقديم توضيح.

وبالفعل وكما ذكر لهما في بداية حديثه، لم تمر السبع دقائق حتى كانت سيارة الاسعاف عند الباب.

❖

إسعاف ٢

هلو حياتي، هلو حبيبي، حبيبي عندي لقاء فد لحظة وأخابر.

أجاب بصوت لم يحرص على ان يكون خافتا ولكنه كان ناعما. تابع الحديث مع المشرفة الإجتماعية. الموبايل يرن مجددا، النغمة أغنية لعبد الحليم حافظ (بحلم بيك).

عمري، حبيبي، لا...

استأذن بأدب ليتابع مكالمته وهو ينهض مغادرا غرفته في مبنى السكن المؤقت التابع إلى البلدية. عاد بوجه خجل معتذر ليخبر المشرفة أن صديقا له سيصل بعد عشر دقائق ويرجو ألا يكون لديها مانع.

تابعت المشرفة الحديث وتلكأت المترجمة قليلا.

الشقة التي عرضت عليه كسكن دائم لم تعجبه. قالها بهدوء وببعض من ترفع؛ تفتقد أبسط وسائل الراحة للعيش.

- كيف؟

- صغيرة مثل زنزانة بل تابوت وأنا أنوي أن اتقاسم السكن فيها مع صديق لي. ليس هناك باب للغرفة الوحيدة فيها.

طرق على الباب يقطع حديثه فيهب من مكانه ليفتح للطارق. أصوات قبل متبادلة. دخل وهو ممسك بفرح يد الصديق الذي وصل.

الإبتسامة واحدة. يتفاجأ المرء لتطابق ملابسهما أيضا، بنطلون جينز ابيض بحزام أسود مرصع بمربعات حديدية فضية. حذاء عال فالإثنان بقامة قصيرة، قميص أسود ضيق مفتوح وفانيلة رصاصية اللون تحته وسلسلة فضية سميكة تزين الرقبة. وشعر مغرق بالشمع.

يوزع الضيف سلامه وابتسامته على الحاضرين برقة.

آ، لهجته اللبنانية لأنه سكن وكبر في البقاع بعد مغادرتهم النجف، هو وامه وأخوته. يشرح صديقه ذلك للمترجمة.

أجل هو من يود مشاركته السكن.

أجرت المشرفة اتصالات سريعة وأقفلت الهاتف لتخبره وهي تشير الى صديقه، بأن القانون لا يسمح له بذلك فهو طالب لجوء، وصل من دون مرافق ولم يكمل الثامنة عشرة بعد، ولم تحسم معاملة لجوئه، علاوة على مرضه إذ تحتاج حالته إلى إشراف طبي مستمر وسكن محمي لمتابعته ما دام قاصرا.

- وعلى فكرة صديقك غادر المعسكر من دون موافقة أو اشعار.

التفت يده على ظهر صديقه؛ ولكن... كيف، اعرفه حق المعرفة منذ كنا في لبنان، والده معدوم وهو لا يعرف مصير امه مذ أرسلوه الى هنا، شقيت ودفعت ما عندي كي يصل إلى هنا.

تدير المشرفة الرقم بضبط أعصاب ملفت لنظر المترجمة التي كانت اوصالها ترتجف. تعطي بهدوء المعلومات بالهاتف؛ تظنها نوبة صرع التي أطاحت به على الأرض، وجهه محتقن، تجيب على الاسئلة بدقة، نعم، لا، ربما.. أجل.. هناك زبد في فمه.

تقفل الهاتف.

وتعلن ان سيارة الاسعاف في طريقها لهم بالحال.